

تفسير ابن كثير

قد أورد أبو جعفر بن جرير C تعالى عند قوله تعالى : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا } سؤالا فقال قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى فأين النصر في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاما والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة (الثاني) أن يكون المراد بالنصر والإنتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمرود أخذه □ تعالى أخذ عزيز مقتدر وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط □ تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم وأظهرهم □ تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم E إماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصره عظيمة وهذه سنة □ تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة B عن رسول □ صلى □ عليه وسلّم أنه قال : [يقول □ تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب] وفي الحديث الآخر : [إنني لأتأر لأوليائي كما يتأر الليث بالحرب] ولهذا أهلك □ D قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق وأنجى □ تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحدا وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدا قال السدي لم يبعث □ D رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث □ تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها وهكذا نصر □ نبيه محمدا صلى □ عليه وسلّم وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان وأمره بالهجرة من بين طهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارا وأعوانا ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم له وقتل صناديدهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة ففرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنفذه □ تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين □ أفواجا ثم قبضه □ تعالى إليه لما له عنده

من الكرامة العظيمة فأقام □ تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين □ D ودعوا عباد □ تعالى إلى □ جل وعلا وفتحوا البلاد والرسايق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد } أي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل قال مجاهد : الأشهاد الملائكة وقوله تعالى : { يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم } بدل من قوله : { ويوم يقوم الأشهاد } وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسر به { ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين } وهم المشركون { معذرتهم } أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية { ولهم اللعنة } أي الإبعاد والطرده من الرحمة { ولهم سوء الدار } وهي النار قاله السدي بئس المنزل والمقيل وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما { ولهم سوء الدار } أي سوء العاقبة وقوله تعالى : { ولقد آتينا موسى الهدى } وهو ما بعثه □ D به من الهدى والنور { وأورثنا بني إسرائيل الكتاب } أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة □ تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى E وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة { هدى وذكرى لأولي الألباب } وهي العقول الصحيحة السليمة وقوله العاقبة ونجعل كلمتك سنعلي أنا وعدناك أي { حق □ وعد إن } محمد يا أي { فاصبر } : D لك ولمن اتبعك □ لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله تبارك وتعالى : { واستغفر لذنبك } هذا تهيج للأمة على الاستغفار { وسبح بحمد ربك بالعشي } أي في أواخر النهار وأوائل الليل { والإبكار } وهي أوائل النهار وأواخر الليل وقوله تعالى : { إن الذين يجادلون في آيات □ بغير سلطان أتاهم } أي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من □ { إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع { فاستعذ □ } أي من حال مثل هؤلاء { إنه هو السميع البصير } أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات □ بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير .

وقال كعب وأبو العالية نزلت هذه الآية في اليهود { إن الذين يجادلون في آيات □ بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } قال أبو العالية وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال □ تعالى لنبيه صلى □ عليه وسلّم أمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال ولهذا قال D : { فاستعذ □ إنه هو السميع البصير } وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه □ سبحانه وتعالى أعلم